الخبوشاني الصادع بالحق

نحن الآن مع سيرة عالم جليل، كان وقورًا مهيبًا، عالمًا شجاعًا، جريئًا في الحق مؤمنًا صادقًا، كان السلاطين يخافونه ويعظمونه، لأنه لا يخشى في الله لومة لائم، وفي أحداث حياته ومواقف أيامه، نلمس تلك الجرأة وهذه الشجاعة، التي لا يقوى عليها إلا الصادقون، الذين وهبوا حياتهم لدين الله وأخذوا أنفسهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهما كانت العقبات والعوائق، إنه (الفقيه الكبير، الزاهد نجم الدين ، أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد ، الخبوشاني الشافعي ، الصوفي)[1] الذي لا يعرفه الكثيرون، ولا يجري اسمه على الأسماع، وأصله من "خبوشان" من قرى نيسابور، وولد قربها سنة ٥١٠ هـ الموافق ١١١٦م، كان فقيهًا شافعيًا، بارعًا في الفقه، وصنّف فيه "تحقيق المحيط" في الفقه، حتى قال ابن خلكان: «كان يستحضر كتابه المحيط وهو ستة عشر مجلدًا»، قدم إلى مصر فأقام بها و أفتى وصنّف الكتب، قال السخاوي: «ردَّ الخبوشانيّ على أهل البدع واستتابهم، وأظهر معتقد الأشعرية بالديار المصرية». وقال ابن خلكان: (كان السلطان صلاح الدين يُقربه، ويعتقد فيه، ورأيت جماعة من أصحابه، فكانوا يصفون فضله ودينه وسلامة باطنه)[2]

وقال عنه الذهبي: (الفقيه الكبير، الزاهد نجم الدين، أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد، الخبوشاني الشافعي، الصوفي)[3]

---

١ - سير أعلام النبلاء - الذهبي

٢ - المرجع السابق

٣ - سير أعلام النبلاء للذهبي

وأغلب المصادر تؤكد أنه ولد سنة ٥١٦هـ، وتعلم الفقه الشافعي على يد أكبر تلاميذ الإمام الغزالي وهو محمد بن يحيى، كما حدّث عن هبة الرحمن ابن القشيري، و أنه وفد إلى مصر قبل سقوط الدولة الفاطمية بسنتين، عام ٥٦٥هـ وفيها تُوفي ودُفن عام ٥٨٧هـ.

ولعل هذا الاسم لهذا العالم الشجاع الصداع بالحق، لا يعرفه الكثيرون، ومعرفة سير العلماء الأحرار والصالحين الشجعان، تغيب عن حياتنا كمسلمين، وتتم التعمية عنها عمدًا، حتى نتخيل صورة واحدة للعلماء يتم الترويج لها وتسويقها، وهي صورة العلماء السلبيين المستسلمين المنبطحين العاجزين قليلي الحيلة والمسبحين بحمد الطغاة، لكننا نحاول جاهدين أن نحيي بعضًا من سيرة هؤلاء الشجعان الأشاوس لنقر الحق ونصحح المفاهيم.

قدم الخبوشاني رحمه الله من بلاد فارس، من خبوشان إحدى قرى نيسابور، ونزل بمصر وعاش بها، وكان سني المذهب حريصٌ على محاربة التشيع الذي انتشر في بلده الأم، ورغم أن الخبوشاني رحمه الله عاش في بيئة يغلب عليها التشيع، لا أنه كان يتعصب لمذهبه، ويفكر جديًا في مواجهة الشيعة و أفكارهم، التي رآها تخالف جادة الصواب، وتخرج عن روح الدين، وعندما بلغ (٤٩) من عمره، قرر أن يسافر إلى مصر لمواجهة الفاطميين في عقر دارهم، فقال كما نقل الذهبي: " أصعد إلى مصر، وأُزيل ملك بني عبيد اليهودي"، وكان رحمه الله، يجمع إلى قوة البيان والحجة، قوة الشخصية أيضًا، وهو ما جعل الفاطميين يخشونه، ويحرصون على استرضائه ومهادنته، نقل المناوي في كتابه (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) والذهبي في سير أعلام النبلاء: أن الفاطميين أرسلوا إليه مالاً، لكن

الخبوشاني رد المال، وضرب رسول الفاطميين بقوة على صدره ورأسه، ثم لم يلبث أن شتم الخليفة نفسه جهرةً بلا تحسب أو خشية!

لقد كان الرجل رافضًا لأي تفاهم أو حوار مع الشيعة، لوقوفه على فساد عقيدتهم، وخبث مقاصدهم، وهو ما جعل صلاح الدين الأيوبي يجد فيه بُغيته، حينما كان يعمل على إزالة ملك الفاطميين والعودة بمصر إلى الخلافة العباسية، ودوحة الإسلام السني والعقيدة الصحيحة، حيث (استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني من جملتهم، لكنه بالغ في الفتيا وصرّح بتعديد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام فوق ذلك)[1].

وعندما هم بخلع العاضد آخر ملوك الفاطميين، وأراد أن يجعل خطباء الجمعة يدعون للخليفة العباسي في آخر خطبهم، نراه قد تهيب هذا الأمر، لكن الخبوشاني وقف أمام أحد المنابر بعصاه، وأمر الخطيب أن يدعو لبني العباس ففعل، وانتهى حكم الفاطميين لمصر، وانتهى معه عهد الوهم والخرافة، واستغلال النسب المزعوم إلى آل البيت، ولا زالت حياته وسيرته تتغنى بتلك الواقعة، وترن روعتها في سمع الزمان، عندما ادعى العزيز بالله الفاطمي، أنه يعلم الغيب، فكتب له أحد المصريين بطاقة وجعلها على منبره، فلما صعد إليه قرأ البطاقة وإذا مكتوب فيها:

بالظلم والجور قد رضينا...وليس بالكفر والحماقة

إن كنت قد أوتيت علم غيبٍ...بين لنا صاحب البطاقة

وفي كتابه (أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر) يذكر الأستاذ (سامح كريم) أن علاقة صلاح الدين الأيوبي بالخبوشاني رحمه الله، كانت علاقة

---

١ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري

محبة وتوقير واحترام بالغ، بل إن صلاح الدين كان يخاف من دعوة هذا الرجل الذي وقر في نفسه أنه من أولياء الله الصالحين.

فيقول: "أنه لما خرج صلاح الدين لقتال الفرنجة في مدينة الرملة بالديار الشامية، ذهب أولاً إلى دار الإمام الخبوشاني ليقوم بتوديعه، فلما رآه الإمام طلب منه أن يبطل بعض المكوس التي كانت تُؤخذ من الحُجاج، فرفض صلاح الدين فغضب الخبوشاني، وقال: "قم لا نصرك الله" ووكزه بعصاه بشدة، حتى أن قلنسوة صلاح الدين وقعت من رأسه، والعجيب أن السلطان لم يفعل شيئاً للإمام، بل سار إلى الرملة مع جنده وحاقت بالمسلمين الهزيمة في تلك المعركة!

وثمة واقعة أخرى تُظهر لنا شجاعته وجرأته في الحق، وصلابته في أي ظلم أو جور، حين علم بأن ابن شقيق صلاح الدين، واسمه تقي الدين يبيع للناس "المزر"، وهو شراب مسكر يشبه البيرة، فما كان منه إلا أن كتب لصلاح الدين يطلب منه أن يَنهى ابن أخيه عن بيع هذا الشراب، فلما قرأ السلطان الكتاب، أحضر ابن أخيه وقال له: "يا بني لا طاقة لنا بالخبوشاني اذهب إليه وترضاه" فذهب تقي الدين إلى بيته، وعند بابه أرسل من يُعلن عن حضوره واعتذاره قائلاً: تقي الدين يسلم عليكم، فرد الإمام: بل قل شقي الدين! لا سلم الله عليه فقال الرسول: إنه يعتذر، فرد الإمام: إنه يكذب، وامتنع من مقابلته، فما كان من تقي الدين إلا أن توقف عن بيع الشراب خوفًا من غضب الخبوشاني رحمه الله.

ونُقل عن المناوي أن الإمام عاش حياته كلها لم يأخذ من الملوك درهمًا، وعندما توفي كفنوه في كساءه الذي جاء به من خبوشان، وقد أوصى أن يدفن بجوار الإمام الشافعي ﷺ.